إستراتيجيات تفكيك الخطاب الكولونياليّ تجاه الشعوب المستعمرة
دراسة مرجعيّة

سوزان حمود العالق و حسين عبدالله الصديق

قسم اللغة العربيّة، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة حلب، سوريا

الملخص

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن جذور الخطاب الكولونياليّ، وأشكال السلطة التي أسسها في بنية المجتمعات المستعمَرة، ويهدف إلى بيان أسباب استمرار علاقة التابعيّة بينهما، والآليات التي جعلت من هذا الخطاب خطاباً متوالداً بشكل مستمر، بالإضافة إلى دراسة النظم الجديدة، التي ما فتئ المستعمِر يطوّرها، بدلاً من الممارسات العسكريّة.

وجاءت هذه الدراسة على المنهج التحليليّ لتتناول تحليل الخطاب الكولونياليّ من خلال تقسيمه إلى مستويين: الأول: الخطاب الكولونياليّ الظاهر، والثاني: الخطاب الكولونيالي الباطن؛ إذ إنّ العلاقة بين المستويين علاقة جدليّة، وكلاهما يسعى إلى توطيد سلطة المستعمِر تبعاً لاستراتيجيات وتقنيات معينة تضمن استمرارية وجودها، فالمستوى الأوّل أدواته في السيطرة هي الآلة العسكريّة الحربيّة وتبعاتها، أو ما يسمى بالوسائل الخشنة، أمّا المستوى الثاني فيعتمد على الوسائل الناعمة التي لا تثير الضجيج أو الشبهات.

وتهتم هذه الدراسة بالمستوى الثاني، أي الكشف عن النفوذ الكولونياليّ في هويّة المستعمَر، والقوى الجديدة في السيطرة على البنى الاقتصاديّة والثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

واقتضت الضرورة المنهجية دراسة آليتين من آليات الخطاب الكولونياليّ الباطن: الأولى: الأنثروبولوجيا وترسيخ المقولات الاستشراقية، والثانية: التأطير والتعليم وثقافة الطاعة.

وخلصت الدراسة إلى أنّ آليات الخطاب الكولونياليّ الباطن عملت على تشويه هُوية المجتمعات التي كانت خاضعة للاستعمار، وبذلك ضمن المستعمِر استمرار وجوده في بنية هذه المجتمعات، واستمرار علاقة التابعيّة، حتى بعد خروجه العسكري.

الكلمات المفتاحيّة: الاستشراق، الاستعمار، السلطة.

المقدمة

تعود أهمية الخطاب (Discourse) إلى مبدأ أساسيّ يحكم بنيته الداخليّة، وهو العلاقة الجدليّة التصاعديّة بين السلطة والمعرفة. فكلّما امتلك الخطاب معرفة أكبر بالجهة المخاطَبة، امتلك سلطة أوسع عليها، وكان أشدّ قوةً وتأثيراً في جوهر هُويّة المخاطَب.

ولا يقتصر الخطاب على الذات الفرديّة، وإنّما له ارتباطات مؤسسيّة وزمنيّة ومعرفيّة، كما أنّ له القدرة على الإسهام في صناعة الأحداث وتحقيقها على أرض الواقع، فلا تقتصر مهمته على الإعلان عن الأحداث أو التنبؤ بها[1].

وهو يشكل بحسب – فوكو – «شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة»[2].

فهناك دائماً رؤية معينة تحكم إنتاجيّة الخطاب لأنّه يصدر عن منظومة من المقولات يمكن أن يُدْرَك العالم داخل حدودها، وهذه المنظومة تمكّن الجماعات المهيمِنة من إنشاء معرفة، ولصقها بالجماعات المهيمَن عليها. وبما أنّ الخطاب تكوين اجتماعيّ، فإنّه يؤدي وظيفته في إعادة تشكيل الواقع[3].

إنّ النظام الجديد الذي اكتشفه فوكو في عمل الخطاب يتمحور حول قضية تمثيل الجماعات المسيطَر عليها، وإنشاء مؤسسات جديدة تُحْدِث تغيرات في التشكيلات الاجتماعيّة والبنى الاقتصاديّة، يكمن وراء إنشائها منظومة المقولات الصادرة عن الخطاب الذي يسعى إلى فرض هيمنته.

لهذا هدفت الدراسة إلى تفكيك استراتيجيتين من الاستراتيجيات التي اتبعها – وما زال يتبعها – الخطاب الكولونيالي تجاه الشعوب التي كان يستعمِرها، للإجابة عن أسباب استمرار علاقة التابعيّة بين المركز والهامش، وعن الآليات التي

(1) ينظر: فوكو، نظام الخطاب، ص ص 7. 9.
(2) الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص 155.
(3) ينظر: أشكروفت، دراسات ما بعد الكولونياليّة المفاهيم الرئيسية، ص 101.

جعلت من هذا الخطاب خطاباً متوالداً بشكل مستمر، وكيف استطاع الخطاب الكولونيالي التغلغل في داخل هويّة المجتمعات التي كان يستعمِرها ويصوغ لها رؤيتها لذاتها.

منهج الدراسة

انتهجت الدراسة المنهج التحليليّ، وهو المنهج الذي يقوم على تفصيل المسائل وبيان حدودها، ومن ثمّ إرجاعها إلى عناصرها المفردة وتمحيصها لاستنباط النتائج وبيان الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج[1].

لذلك عملت الدراسة على تحديد المعنى الدقيق للمصطلح المدروس لما يعانيه من تداخل مع مصطلحات أخرى، وهذا التحديد يُساعد المتلقي في معرفة الأطر الثقافيّة والمعرفيّة للمسألة المدروسة، ومن ثم قسّم العرض إلى فقرتين بيّن فيهما آليتين من الآليات التي اعتمد عليها الخطاب الكولونياليّ لإحكام السيطرة على المجتمعات العربية، الأولى: الأنثروبولوجيا وترسيخ المقولات الاستشراقية، وفيها بيّنت الدراسة كيف اعتمد الفكر الاستشراقي على الأنثروبولوجيا بفرعيها (الأثنوجرافيا، والأثنولوجيا) لترسيخ مقولاته عن المجتمعات التي كانت تسيطر عليها القوى الإمبريالية، وتوقفت الدراسة عند مقولتين أساسيتين هما «تجذر الكسل في الشخصيّة العربيّة- المصريّة»، و«الميل الفطريّ إلى الجريمة والعنف في الشخصيّة العربيّة- الجزائريّة». بعد ذلك انتقلت الدراسة إلى الآلية الثانية وهي: التأطير والتعليم وثقافة الطاعة، وبعد تحديد مصطلح «التأطير»، وكيف ساهم في تطويع المجتمعات المُراد السيطرة عليها، درس آليتين اعتمد عليهما الخطاب الكولونياليّ في تأطير التعليم المصريّ، وهما: زرع مؤسسات تعليميّة على الشاكلة الغربيّة؛ لإنتاج ثقافة الطاعة، وتشويه النماذج والقيم. وختمت الدراسة بأهم النتائج بذكر التي توصل إليها.

تحديد المصطلح

يعدّ إدوار سعيد في كتابه «الاستشراق»[2] أوّل من وظّف أفكار فوكو عن الخطاب[3]، ورأى أنّ الاستشراق خطاب غربيّ سلطويّ يسعى إلى الهيمنة على كلّ ما هو شرقيّ، وبخاصة الشرق العربيّ المسلم، ويتخذ من المعرفة وسيلة للسيطرة من خلال مؤسسات أوجدها، وأنظمة رعاها وساعد على بنائها، وجعل كلّ معرفة تصدر من خارج ذلك الخطاب لا يتمّ الاعتراف بها، لأنّها غير صادرة عنه نفسه.

ومع كتاب سعيد هذا، في ثمانينيات القرن الماضي، جرى تداول مصطلح «الخطاب الكولونياليّ» (colonial discourse)، بوصفه أداة لفرض السيطرة، فـ «الكولونياليّة» (colonialism) مصطلح ذو أهمية كبيرة في تحديد أشكال الاستغلال الذي تنامى مع التوسّع الاستعماريّ في المجالات كلّها: الثقافيّ والسياسيّ والاقتصاديّ[4].

ولم ينته الاستعمار بحصول الدول المستعمَرة على استقلالها السياسيّ، إذ تمّ الإعلان عن مرحلة جديدة سميت بـ«ما بعد الكولونيالية» (post - colonialism) أو «الكولونيالية الجديدة» (neo - colonialism).

وقد تعددت المصطلحات المستخدمة للحديث عن التركة التي خلّفها الاستعمار في البلدان التي كان يستعمرها، إذ يجد الباحث أمامه المصطلحات التالية:

1. تفكيك الاستعمار (decolonization)، وهو الكشف عن النفوذ الكولونياليّ وتفكيك عناصر القوى المؤسسيّة والثقافيّة الجديدة التي منحت النفوذ الكولونياليّ ديمومته.
2. الكولونياليّة الجديدة (neo– Colonaialism)، مصطلح صاغه بطل الاستقلال الغاني (كوافي نكروما) عام 1965، للدلالة على القوة الجديدة للهيمنة العالميّة التي تتحرك بوساطة نخبة محلية أو ما يسميها بطبقة الوكلاء.
3. ما بعد الكولونياليّة (post– colonialism))، ويقصد به دراسة آثار الاستعمار في الثقافات والمجتمعات التي كانت مستعمَرة[5].
4. الخطاب الاستعماري (Colonial Discourse): يشير إلى ما بلورته الثقافات الغربيّة في مختلف المجالات من نتاج يعبّر عن توجهات استعماريّة إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب

(1) ينظر: الصالح، منهج البحث والتحقيق، ص 35.
(2) سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربيّة للشرق.
(3) ينظر: أشكروفت، دراسات ما بعد الكولونياليّة المفاهيم الرئيسية، ص 141.
(4) ينظر: المرجع السابق، ص 106.
(5) ينظر: المرجع السابق، ص 129، 130، و282، 283.

على أساس أنّ ذلك الإنتاج يشكّل في مجمله خطاباً متداخلاً مع المعنى الذي استعمله فوكو لمصطلح الخطاب.

5. نظرية ما بعد الاستعمار (post –Colonial Theory): وتنطلق من فرضيّة أنّ الاستعمار التقليديّ قد انتهى، وأنّ مرحلة من الهيمنة قد حلّت، وخلّفت ظروفاً مختلفة تستدعي تحليلاً من نوع آخر[1].
6. دراسات ما بعد الاستعمار: ترمي إلى تطوير أدوات فكريّة يمكن استخدامها في إضفاء معنى على العالم منذ نهاية الحكم الاستعماريّ الرسميّ، وتتداخل مع تحليل الخطاب الاستعماري[2].

تختلف المصطلحات السابقة فيما بينها اختلافاً ظاهريًّا، وتتفق من حيث الجوهر، فجميعها تدور في دائرة الخطاب الاستعماري، وتبحث في التغيرات التي أحدثها الاستعمار في بنية المجتمعات المستعمَرة (السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة)، فالعلاقة بينها جدليّة تكامليّة.

وتعتمد الدراسة على مصطلح الخطاب الكولونياليّ (Colonial Discourse)؛ لأنّ الكولونياليّة أبعد عن الزوال إذ أصبحت نمطاً للأيديولوجيا السياسيّة التوسعيّة، وتُناقش الدراسة في هذا الخطاب الوسائل الناعمة التي لا تعتمد على الآلة العسكريّة في السيطرة، وإنّما على آليات معرفيّة وثقافيّة لتغيير روح هويّة المجتمعات المستعمَرة وتشويهها، بحيث تعمل هذه الآليات من تلقاء نفسها، حتى بعد خروج المستعمِر.

وتتناول الدراسة من هذه الآليات اثنتين:

أولاً: الأنثروبولوجيا وترسيخ المقولات الاستشراقية.

ثانيًا: التأطير والتعليم وثقافة الطاعة.

العرض

أولاً. الأنثروبولوجيا وترسيخ المقولات الاستشراقية:

تعدُّ الأنثروبولوجيا من العلوم الإنسانيّة الحديثة، فقد ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر، مع التوسّع الاستعماريّ الغربيّ، إذ كان الغرب بحاجة إلى معرفة الصفات والخصائص المميزة للآخر/ المستعمَر ومقارنتها مع صفاته التي يضفيها على هويّته، لبيان تفوّقه انطلاقاً من المركزيّة الأوربيّة، وقد انبثق عن هذا العلم فرعان؛ هما: الأنثروجرافيا، والأثنولوجيا. وظّفهما الاستشراق في دراسة الشعوب المستعمَرة، وتوصّل من خلالهما إلى صياغة صور نمطيّة أشاعها وبشّر بها.

1. الأثنوجرافيا (Ethnography):

علم وصفيّ يهتم بأسلوب الحياة، ومجموعة العادات والتقاليد والقيم لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين في فترة زمنيّة محددة[3]، تبعاً للمنطقة الجغرافية الحاضنة، ويقوم على ربط الخصائص والصفات المجتمعيّة بالتأثيرات الجغرافيّة للمنطقة المدروسة.

ويعدّ عمل (إدوارد وليم لين) في كتابه «المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم في القرن التاسع عشر»[4]، أوّل عمل أثنوجرافيّ استشراقيّ، ولم تكن الأثنوجرافيا في عمله هذا وصفاً لطبيعة الإنسان فقط، بل بوصفها جزءاً من عملية أشمل لوصف الإنسان على أنّه مُنتج بطبيعته[5]، أي إنّ عملية التوصيف بإمكانها أن تحوّل الإنسان إلى الصفات الموصوف بها، وذلك بتكرار عملية الوصف، ليغدو مُنتجاً يمكن التحكّم به، وهو ما يعني أنّ الأثنوجرافيا منبع ثرٌّ لإنتاج صفات معينة وإلصاقها بهُويّة الذات المستعمَرة.

2. الأثنولوجيا (Ethnology):

الفرع الثاني للأنثروبولوجيا. وهي دراسة تاريخيّة تحليليّة مقارنة للمادة الأثنوجرافيّة بهدف الوصول إلى تصورات نظريّة أو تعميمات صاغها في صور نمطيّة لمختلف النظم الاجتماعيّة الإنسانيّة من حيث أصولها وتطوّرها وتنوّعها[6].

لقد شكّل الفرع الأوّل أساساً للثاني الذي هو مرحلة متقدمة لم يتمّ العمل بها إلاّ مع بداية القرن العشرين.

---

(1) ينظر: الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص 158.

(2) ينظر: لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياسته والصراع على تفسير الشرق الأوسط، ص 335.

(3) ينظر: هولتكرانس، قاموس الأنثروبولوجيا والفلكور، ص 16. وينظر: فهيم، قصة الأنثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان، ص ص 14.15.

(4) لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم في القرن التاسع عشر.

(5) ينظر: ميتشل، استعمار مصر، ص ص 165.166.

(6) ينظر: هولتكرانس، قاموس الأنثروبولوجيا والفلكور، ص 19. وينظر أيضاً: فهيم، قصة الأنثرولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان، ص ص 14.15.

وقد عمل الاستشراق المرتبط بالاستعمار على تفعيل تلك التصوّرات والتعميمات من خلال الاعتماد على فئات داخل المجتمعات المستعمَرة، تقوم بمهمة أحصنة طروادة في اختراق بنى المجتمع وخلخلتها مستعينة بالمؤسسات التي أنشأها الاستعمار نفسه في هذه المجتمعات، واستمرت تقوم بمهام كولونياليّة بعد خروجه.

وسنكشف في هذه الفقرة عن آليات الخطاب الكولونياليّ المعتمد على الأثنوجرافيا الاستشراقيّة في ترسيخ مقولتين أساسيتين ارتكز عليهما الفكر الاستشراقيّ في إطلاق التعميمات والتجريدات على المجتمعات العربيّة، متخذين من مصر نموذجاً لتطبيق المقولة الأولى، ومن الجزائر نموذجاً لتطبيق المقولة الثانية:

1. تجذّر الكسل في الشخصيّة العربيّة- المصريّة.
2. الميل الفطري إلى الجريمة والعنف في الشخصيّة العربيّة- الجزائريّة.

1. تجذّر الكسل في الشخصيّة العربيّة- المصريّة:

تفتقر العلاقات الاستعماريّة بين المستعمِر والمستعمَر إلى الروابط الطبيعيّة المشتركة التي تربط الحاكم بالمحكوم وهي اللغة والدين والعادات والتقاليد، لذا أشار (كرومر)[1] إلى ضرورة إيجاد ما يسمى «بالروابط الاصطناعيّة» للسيطرة على العقل، وتقوم هذه الروابط على جمع المعلومات ووصف الأخلاق والعادات[2]، التي ستسمّى فيما بعد بـ»العرق» ثم بـ»الثقافة» في المباحث الأنثروبولوجيّة، وبذا تغدو المعرفة المبنيّة على جمع المعلومات عن الآخر – المصريّ هنا – أداة للسيطرة عليه.

إنّ المقدمات الوصفيّة التي تنطلق منها الأثنوجرافيا عن الشعوب المستعمَرة، هي أنّها كسولة، ولأنّ الكسل مترسّخ في هويّتها وسلوكها، توصلت إلى نتائج يستفيد منها الخطاب الكولونياليّ، وهي أنّ هذه الشعوب لا تستطيع أن تحكم نفسها ومن ثمّ فهي بحاجة إلى الآخر/ المستعمِر؛ ليقوم بهذه المهمة.

لقد تضمّن كتاب (إدوار لين) –سابق الذكر– فصولاً متتالية تصف كيف يعمُّ الكسل كلّ طبقات المصريين؟ بحيث غدت هذه الصفة السمة المميزة للعقليّة غير الأوربيّة[3].

وقد وجد الباحث الفرنسي (جورج برنهارد ديبينج) أنّ الفارق الأساسيّ بين أمم آسيا وأمم أوروبا هو الكسل[4]. لذا كان على الغرب المتمدّن، عند نقل (رسالته الحضاريّة)، ألاّ يكتفي بالآلة العسكريّة لأنّها تدمّر الأجساد فقط، بل كان عليه الاعتماد على إحداث تغيرات داخل الثقافة، وذلك من خلال حاملها الأساسيّ وهو الإنسان، وهذا ما أسماه (جوستاف لوبون) في كتاباته الاستشراقيّة بتغيير روح الشعب التي يقصد بها العقل الجمعي لمجموعة من الناس أو جنس من الأجناس، المتكوّن من مجموع عواطفها وأفكارها ومعتقداتها، ويتشكل من خلال عملية تراكم وراثي بطيء[5]. ويقابل مصطلح الثقافة غير العالمة في هوية الأمة، وهي المعوّل عليها لأنّها تمثل الذاكرة الممتدة عمقاً في التاريخ، ولا يمكن تغيير هذه الذاكرة إلاّ من خلال استبناء ذاكرة جديدة تحلّ محل الأولى، ويكون الرهان الأساسيّ في عملية الاستبناء هذه على الزمن والنخب المثقفة.

لقد أدرك الخطاب الكولونياليّ أهمية كسب هذا الرهان لاستمرار سيطرته على الشعوب المستعمَرة، فاستقطب نخبتها المثقفة وأوفدها إلى جامعاته في عشرينيات القرن العشرين، فتسرّبت أفكار المركزيّة الأوربيّة إلى ثقافة هذه النخبة وكتاباتها؛ إذ إنّ هذه المركزية تقسّم العالم إلى قسمين مختلفين: قسم متمدّن، تمثّله أوروبا، والسبب في تمدنها هو الاجتهاد، والقسم الآخر متخلّف ينتمي إليه العالم العربيّ، ويكمن سبب تخلّفه في الكسل الذي أصبح جزءاً من الشخصيّة العربيّة، وقد ربطت تلك المركزيّة هذا التخلّف بالدين وما يلحق به من الاستسلام للقضاء والقدر.

وقد عملت أفكار المثقفين وترجماتهم تبعاً لـ «جدليّة الدعم» التي تكّلم عنها (إدوارد سعيد)

(1) كرومر: هو إيفلن بارنج من الشخصيات التي أدت دوراً مهماً في إدارة الامبراطوريّة البريطانيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان دوره الأكبر في مصر بين عامي 1883.1907م؛ إذ كان ممثلاً للهيمنة الإمبرياليّة والاستبداد الإداريّ في فترة الاحتلال البريطانيّ لمصر. ينظر: أوين، اللورد كرومر الإمبرياليّ والحاكم العسكريّ، ص 11.12.

(2) ينظر: ميتشل، استعمار مصر، ص 164.

(3) ينظر: لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم في القرن التاسع عشر، ص 216 وما بعدها.

(4) ينظر: ميتشل، استعمار مصر، ص ص 166.167.

(5) ينظر: المرجع السابق، ص ص 188 . 189.

في كتابه «الاستشراق»[1]، والتي تتلخص في أنّه كلّما قرأ شخص، عند كاتب ما أو مترجم أنّ العربيّ - والمصريّ خاصة- كسول وفوضويّ ومثير للشغب، ثمّ قابل شخصاً كسولاً فإنّه سيقرأ المزيد من مؤلفات هذا الكاتب أو المترجم، ويصدّق ما جاء فيها، وهذا ما أدّى شيئًا فشيئًا إلى ترسيخ سمة الكسل، وجعلها جزءاً من شخصيّة الإنسان المصريّ.

فالمعرفة هنا بنيت على جانب واحد من جوانب الشخصيّة، ثمّ عُمِمَت من غير بحث عن الأسباب التي أدّت إلى هذه النتائج والسمات، فالكسل جزء من الطبيعة البشريّة التي يشترك فيها كلّ الناس، ولكن وجود الإنسان في أطر اجتماعيّة وثقافيّة وسياسيّة معينة هو الذي يهذّب هذه السمة، لذا كان الاستعمار حريصاً على زرع سلطات حاكمة تُؤْثِر مصالحها الشخصيّة ومصالح سادتها الغرب، وهذا ما يفسر ارتفاع نسبة البطالة في الوطن العربي على الرغم من غناه وثرواته.

لقد غدت المعرفة وسيلة للسيطرة على الآخر/ المستعمَر بعد إنشاء سمات معينة وإعادة إنتاج الشخصيّة كشيء منفصل عن الموضوع.

وهذه الجدليّة تفسّر أيضاً الانتشار الواسع الذي حققته ترجمات كتب من مثل كتب إدمون ديمولان[2]، وجوستاف لوبون[3]، في الأوساط الثقافية العربيّة عامة والمصريّة خاصة.

وقد بلغت درجة تمثّل هذه السمات المُنتجة من قبل الآخر/ المستعمِر في الذات المستعمَرة أنّ أدبيات العقد الأخير من القرن التاسع عشر انصبّ جلّ اهتمامها على تشخيص الاعتلالات الخاصة التي كانت أوّلها دائماً وأكثرها شيوعاً الكسل والبطالة.

وفي عام 1902 ناقش محمد عمر في كتابه (حاضر المصريين أو سرّ تأخرهم) باستفاضة بعض العواقب الأبعد مدى لهذا الكسل، والسلوكيات الجديدة في الحياة الاجتماعية[4].

أمّا الدرجة الأعمق والأخطر في تَمَثّل هذه السمات المُنتجة فهي الانشغال بها في المحافل الثقافية، ومناقشة ما يسمّونه بـ «النقد الاجتماعي» أو «بيان العيوب الأخلاقيّة للمجتمع» بدعوى القلق منها، هرباً من التنبيه على الخطر الأكبر المتمثّل في الاحتلال البريطاني العسكري للبلاد، فقلق قاسم أمين وأحمد زغلول ومحمد المويلحي - أعضاء الصالون الأدبي والاجتماعي - «لا يتمثّل كثيراً في الاحتلال العسكري، الذي بدأت عائلاتهم تستفيد منه مع امتعاضهم من حقيقة السيطرة الأوربية، بوصف هذه العائلات من ملاك الأراضي والتجار وموظفي الحكومة، ولكن القلق كان هو الزحام الذي يتهددهم في الشوارع والمقاهي في الخارج»[5].

2. الميل الفطري إلى العنف والجريمة في الشخصيّة العربيّة-الجزائريّة:

يعتمد الخطاب الكولونياليّ في ضمان استقراره على النظريّة الاستشراقيّة الاستعماريّة القائلة أنّ الهمجيّة هي السمة الأساسيّة للشعوب المستعمَرة، وما مجيء الاستعمار إلاّ لترويضها وحمايتها من شرور نفسها.

وتقدّم الأنثروبولوجيا بفرعيها الأثنوجرافيا الوصفيّة والأثنولوجيا التحليليّة المقولات الأساسيّة الداعمة لهذا الخطاب، وسندرس في هذه الفقرة المقولات التي مسّت الشعوب العربيّة عامة، والشعب الجزائري خاصة.

تُسقط الأثنوجرافيا على الشعب الجزائريّ مجموعة من السمات لجعله مهيأً لقبول العملية الاستعماريّة، فالجزائري يقتل لأمر تافه، ويقتل كثيراً وبوحشية، وهو مجرم بالفطرة[6].

وإذا ما انتقلنا إلى الفرع الثاني من الأنثروبولوجيا أي الأثنولوجيا المختصة بعملية التحليل وإيجاد الجذور التاريخيّة لهذه السمات التي قدمتها

(1) ينظر: سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربيّة للشرق، ص ص 170 . 171.

(2) ترجم أحمد فتحي زغلول كتاب إدمون ديمولان (A quoi tient la superisrite te dos Anglo.saxaxs)، تحت عنوان «سر تقدم الإنكليز السكسونيين»، وقد بيّن هدفه من الترجمة في المقدمة التي كتبها، وهو أن يجعل الناس يتفكرون في أسباب الدونية العقلية، بمقارنة «الأخلاق» المصرية مع أخلاق الإنكليز الذين احتلوا بلدهم. ينظر: ص 45.46. وكذلك ترجم: حسن توفيق الدجوي كتاب إدمون ديمولان (L'education nouvelle) تحت عنوان «التربية الجديدة» بعد نجاح كتاب إدمون الأول «سرّ تفوق الإنكليز السكسونيين».

(3) تُرجم عدد من كتب جوستاف لوبون، وكلّها تخضع لجدلية الدعم، وكانت هذه الترجمات تلقى رواجاً بين المثقفين، ومن هذه الكتب: «روح الاجتماع»، و«سرّ تطور الأمم»، و«حضارة العرب»، و«الحضارة المصرية القديمة».

(4) ينظر: ميتشل، استعمار مصر، ص ص 180–181.

(5) المرجع السابق، ص 180.

(6) ينظر: فانون، معذبو الأرض، ص ص 280.281.

الأثنوجرافيا، فإننا نجد أنّه يتمّ استخدام التحاليل السوسيولوجيّة والعلميّة والتاريخيّة، وكلّها مرتكزة على النظريات العرقيّة التي هيمنت على ثقافة أوروبا في ذلك العصر.

ويعلل الباحثون تحت إشراف الأستاذ «بورد»[1] أستاذ الأمراض العقليّة في كلية الطب بمدينة الجزائر، هذه السمات فيزيولوجيًّا وعلميًّا بناءً على نظرية النشوء والارتقاء التي سادت في القرن التاسع عشر، من أجل زيادة المسافة بين المستعمِر والمستعمَر، فالمستعمَر دائماً في درك الحيوانات، ينتظر من المستعمِر أن ينتشله من دونيته المفروضة عليه بحكم تكوينه البيولوجيّ، فالمراكز اللحائيّة العليا عند الجزائريين متخلّفة؛ فهم أناس بدائيون، يسيطر الدماغ المتوسط خاصة على حياتهم التي تقوم على الوظائف الحيويّة الدنيا وعلى الغرائز، علماً أنّ ما يميّز النوع الإنسانيّ إذا ما قيس بالحيوانات الفقريّة الأخرى هو سيطرة اللحاء، أمّا الدماغ المتوسط فهو جزء من أكثر أجزاء الدماغ بدائيّة.. واندفاعيّة الجزائريّ وكثرة جرائم القتل التي يرتكبها والصفات التي يتصف بها وميوله الدائمة إلى اقتراف الجريمة وبدائيته، كلّ ذلك ليس مصادفة، وإنّما نحن هنا إزاء سلوك منسجم مع نفسه، يمكن تعليله علميًّا بأنّ الجزائريّ ليس له لحاء دماغيّ، أو على نحو أدق: إنّ السيطرة عنده إنّما هي للدماغ المتوسط شأنه في ذلك شأن الحيوانات الفقريّة الدنيا[2].

لقد عمل الخطاب الكولونياليّ على إسباغ هذه السمات والتحاليل على هُويّة الجزائريّ، لتصبح جزءاً من ثقافته ولاوعيه المعيش المتجلّي في سلوكه اليوميّ، فغدا لا يرى ذاته إلاّ في هذه المرآة التي صُنعت له. فهو يقول: «نعم نحن أناس سريعو الغضب، ميالون إلى المشاجرة، محبون للشرّ... هكذا نحن»[3]. وتحت تأثير ذلك أجمع معظم القضاة والمحامين والصحفيين والأطباء والشرعيين الجزائريين على استعداد الجزائريّ للجريمة، ونتيجة للدراسات في مدرسة الطب النفسيّ، حُمل الأطباء الجزائريون على القول بهذه السمات، وأنّها «حقيقة مُرّة ولكنّها ثابتة علميًّا»[4]. أمّا المثقف الجزائري الذي من المفترض أنّه الحصن الأخير لحماية الهُويّة من الضياع، فقد مورست عليه عمليات تعذيب تعتمد على «غسيل الدماغ»[5] -على حد تعبير فرانتز فانون.

إنّ آثار هذه العمليات لا تذهب بذهاب المُؤثّر، فهي ليست حالة انفعاليّة، كالتعذيب الجسدي مثلاً، وإنّما تتعلق بالمساس بجوهر البنية الثقافيّة والاتجاهات المعرفيّة التي يؤمن بها المثقف، من خلال عملية إزاحة ممنهجة للمفاهيم الأساسيّة التي تشكل هُويّته.

ويتخذ الخطاب الكولونياليّ نقطة مفصليّة في التأسيس لتاريخ الشعوب المستعمَرة، وهي لحظة مجيء القوات العسكريّة لانتشال هذه الشعوب من طور الهمجيّة والوحشيّة والدونيّة، إلى طور التمدّن والحضارة، ويسعى لتحقيق هذا على مستويين:

الأوّل، تشويه تاريخ هذه الشعوب من خلال ترويج فكرة أنّ تاريخها السابق على الاستعمار تسوده الهمجيّة، ويعمل من خلال ذلك على «نبذ واستبعاد كلّ أشكال الوعي التي حاولت أن تذكّر بمرحلة ما قبل الاستعمار، وأصبحت مع الزمن أشكالاً معيبة وقاصرة وتمّ التثبت من دونيتها، ولم يُستأثر بالاهتمام بها، لأنّها تُعنى بجزء من حقب عُدّت مظلمة، طُمست باعتبارها عورة تحيل على تاريخ ينبغي نسيانه»[6]. ولهذا السبب كانت التهم جاهزة مسبقاً من رجعيّة وتخلّف لكلّ من يدعو إلى التمسك بتراث الأمة العربيّة الإسلاميّة وهُويتها ومرجعيتها الثقافيّة، في مقابل ألقاب المدح والثناء من تقدميّة، وحداثة، لكلّ من يسير تبعاً لخط سير الخطاب الكولونياليّ.

والثاني، بناء تاريخ جديد ينطلق من فكرة جوهريّة تتمحور حول بداية التحديث والتطوير عند الشعوب المستعمَرة، هذا التحديث الذي يقترن بمجيء الآخر/المستعمِر، حملة نابليون بونابرت عام1879م، وارتباط التطوير ارتباطاً وجوديًّا به. وقد استمدت هذه الفكرة سلطتها من إعادة إنتاجها داخل الفكر الاستشراقيّ منذ زمن شاتوبريان إلى اليوم، فالمقولات الاستشراقيّة تنطلق من ركيزة أساسيّة وهي أنّ: الغرب هو

(1) المرجع السابق، ص 281.
(2) ينظر: المرجع السابق، ص 283. 284.
(3) المرجع السابق، ص 287.
(4) المرجع السابق، ص 281.
(5) للتوسّع في مسألة غسيل أدمغة المثقفين، ينظر: المرجع السابق، ص 270 وما بعدها.
(6) إبراهيم، السرديّة العربيّة الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماريّ وإعادة تفسير النشأة، ص 12.

المنقذ للشرق العربيّ المسلم، وصاحب الرسالة الحضاريّة، والمهمة الوجوديّة له هي تخليص هذا الشرق من همجيته، وتعليمه أسس التطوّر والمدنيّة والحريّة، ولذا فإنّ جوهر الخطاب الذي جاء به رحالة القرن التاسع عشر لا يختلف عمّا جاء به (كرومر) على سبيل المثال عام 1910م، فالشرقيون عند كليهما يحتاجون إلى الفاتح، وبذلك لا يمكن عدّ الاستعمار الغربيّ غزواً بل تحريراً[1].

لقد شكلت هذه المقولات القوّة الكامنة في الخطاب الكولونياليّ على الدوام، وأُعيد إنتاجها عند احتلال العراق عام 2003م، إذ لم يفتأ (بوش الابن) يكرر المقولات الكولونياليّة الاستشراقيّة ذاتها، في خُطَبه في أثناء الحرب.

ثانياً: التأطير والتعليم وثقافة الطاعة

يقصد بالتأطير لغة الإحاطة بالشيء ووضعه في إطار معين[2]، أمّا اصطلاحاً فهو: «منهج للتبويب والاحتواء، كما في بناء الثكنات، وإعادة بناء القرى، يعمل عن طريق استحضار صورة ذهنيّة لمسطح أو كتلة محايدة اسمها «المساحة»[3]. أي وضع أسس وقواعد مكانية معينة، وإعادة تشكيل المكان أو الموضوع، لإنتاج سلوكيات بعينها، يتمّ تحليلها بشكل منظّم لخدمة السلطة السياسيّة الحديثة، المرتكزة على أيديولوجيات تخدم الخطاب الكولونياليّ، الذي يسعى إلى السيطرة على المجتمعات المستعمَرة ودمجها في منظومات كولونياليّة، بحيث تصبح جزءاً لا يتجزأ منها، وغالباً ما يتمّ هذا بالاعتماد على المواقع الاستراتيجيّة في بنية هويّة المجتمعات المستعمَرة وعلى رأس هذه البنى وأهمّها التعليم.

تعود جذور مسألة تأطير العمليّة التعليميّة في مصر نموذجاً، إلى بداية القرن التاسع عشر، الذي إذا ما وصلنا إلى نهايته وجدنا أنفسنا أمام شكل جديد من المؤسسات التعليميّة «المدنيّة» التي أوجدتها الكولونياليّة تحت تسمية التعليم المدنيّ المدرسيّ، الذي لم يكن موجوداً قبل القرن التاسع عشر[4].

لقد أوجد الخطاب الكولونياليّ مجموعة من التمثيلات ألصقها بنظام التعليم في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، وتعود حقيقة هذه التمثيلات التي تتلخص في الفوضى وعدم الانتظام، إلى المقارنة بين المراكز التعليميّة في هذه المجتمعات – وأشهرها الأزهر – مع النظام المدرسيّ الانضباطيّ السائد في أوروبا وهدفه الأساسيّ اكتساب السيطرة على الأفراد.

تشكّل عملية المقارنة هذه الذريعة التي اعتمدها الغرب في إدخال مؤسساته إلى المجتمع العربيّ الإسلاميّ، فالغطاء الظاهر لهذه العملية هو انتشال هذه المجتمعات من الفوضى وحالة عدم النظام، أما الباطن فهو السيطرة من خلال إيجاد مؤسسات تعمل على القبض على الأجسام وترويضها وصولاً إلى الهيمنة على الوعي والثقافة، بحيث يصبح الفرد مراقباً أينما كان.

تعرض الدراسة لآليتين من آليات تأطير التعليم في المجتمع المصري، وكيف عملت السلطة السياسية على تأطيره في مؤسسات لغايات تضح في هذه الدراسة؟

الآلية الأولى: زرع مؤسسات تعليميّة على الشاكلة الغربيّة، لإنتاج ثقافة الطاعة.

الآلية الثانية: تشويه النماذج والقيم.

الآلية الأولى: زرع مؤسسات تعليميّة على الشاكلة الغربيّة لإنتاج ثقافة الطاعة:

تعدّ الرغبة في استمرار فرض السلطة الاستعماريّة على المجتمعات المستعمَرة من البدهيات التي يعمل الخطاب الكولونياليّ على تحقيقها، لذا كانت العمليّة التعليميّة هي القبلة التي توجهت إليها أفعال هذا الخطاب، لأنّ الرهان على التعليم في بلد ما، هو رهان على مستقبله.

ولمّا كان الخطاب الكولونياليّ يؤمن بعملية التهيئة التي تسبق الاستعمار العسكريّ، عمل على استقدام نماذج لمؤسساته التعليميّة وزرعها في بنية المجتمع، من أجل العمل على تغيير وظيفة التعليم، ومن ثم تغيير هوية المجتمع بكامله، وثمّة نموذجان يوضحان المقصود بالتعليم الأساسيّ المدنيّ الذي بدأ منذ أربعينيات القرن التاسع عشر.

1. نموذج مدارس لانكستر

مدارس لانكستر أو «مدارس التحسين المتبادل»

(1) ينظر: سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربيّة للشرق، ص 278.279.

(2) ينظر: مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط.

(3) ميتشل، استعمار مصر، ص 78.

(4) ينظر: المرجع السابق، ص 137.

استحدثت لتعليم الطبقات الصناعيّة في إنجلترا، وتقوم على فرض سلطة على الأفراد من خلال إخضاعهم لنسق من النظام يتضمن مجموعة من الأوامر تصدر عن طريق تلغراف إشاريّ، وبذلك يتمّ نشر الطاعة المطلقة بين مجموع الأفراد، من خلال إخضاعهم للمراقبة المستمرة ونظام العقاب[1].

هذا النموذج من المدارس الذي يفرض الطاعة المطلقة لم يكن موجوداً في بنية التعليم في العالم العربيّ والإسلاميّ عاماً والمصريّ خاصة؛ إذ يشكل الجامع الأزهر النموذج الأوضح لنظام التعليم – قبل تدخّل السلطة الكولونياليّة في عمله – الذي يقوم على النقاش والحجاج، ويبتعد عن سيطرة القطب الواحد المتمثلة بسلطة المعلّم، فالعمليّة التعليميّة جدليّة بين المُعَلّم والمُتعلّم، فكلّ متعلّم يمكن أن يدخل في عملية تعلّم وتعليم. ويمتلك المكان/ الجامع من القدسيّة ما يجعل الإخلاص في العطاء أحد أهم ميزات تلك العملية.

بالإضافة إلى التواضع، فلم يكن يفصل بين المعلّم والمتعلّم فاصل، فالوظيفة الأساسيّة للتعليم في الثقافة العربيّة الإسلاميّة إشعار الفرد بأهميته في هذا الوجود، ليكون قادراً على الفاعليّة في النسيج الاجتماعيّ المحيط به، فيؤدي وظيفته في الإعمار والاستخلاف، وهذه الوظيفة مستمدة من المرجعيّة التي تحكم كلّ سلوكياته وتصرفاته، وتحرره من كلّ سلطة ما عدا سلطة الله.

إنّ الوعي المنبثق من نظام التعليم هذا، يجعل الإنسان يعيش في حالة انسجام مع وسطه المحيط، ومن أجل قلقلة حالة الانسجام هذه كان لا بدّ من السيطرة على الوعي وتوجيهه وجهة تبتعد به عن أصله الثقافيّ، وتسعى هذه السيطرة إلى تأسيس سلطة سياسيّة، عبر طريقتين: «طريقة القمع وطريقة التربيّة. والأخيرة بعيدة المدى وتعمل على العقل، أمّا الأولى، فتعمل على الجسم، ولا بدَّ أن تأتي أولاً»[2].

إنّ قمع الأجساد وتأطيرها في مؤسسات جديدة هو الخطوة الأولى في سبيل تحقيق النظام الجديد الذي عملت الكولونياليّة على ترسيخه لضمان استمرار سلطتها بشكل تلقائيّ بعد رحيل الاحتلال العسكريّ.

فالتلازم بين طريقتي السيطرة (القمع/ الجسد، التربية/ العقل)، اقتضى من الخطاب الكولونياليّ إعطاء النظام التعليميّ في المجتمع المصريّ الأولويّة في الاهتمام، وذلك وصولاً إلى الطريقة الثانية أي البعد اللامساديّ في هويّة المجتمع لإنتاج طبقة من المتعلمين طيّعة للنظام السياسيّ الجديد، وقد تمّ هذا وفق آليّة تعتمد على إخراج التعليم من المساجد إلى مؤسسات محدثة على الشاكلة الغربيّة ومُؤطَّرة إيديولوجيًّا، ولا تكمن الإشكالية في الشكل الجديد للتعليم، وإنّما في استقدام نسق من النظام ضمن إنشاء سلطة سياسيّة جديدة أحكمت السيطرة على الإنسان ببعديه الماديّ والمعنويّ، ويسمي ميشيل فوكو هذه السلطة بـ»(السلطة الميكروفيزيقيّة)، وهي سلطة تعمل عن طريق إعادة تنظيم المجال المادي في أبعاد دقيقة واكتساب سيطرة مادية متواصلة على أفرادها»[3].

لقد أُدخل نموذج مدارس لانكستر إلى التعليم المصري وفق صورتين:

أ. المدرسة النموذجية في القاهرة[4]:

التي أنشأها إبراهيم أدهم عام 1843م، وكان غرضها استبدال المنهج الأزهري بمنهج لانكستر، وربطها بالمدرسة الابتدائيّة العسكريّة التي أوجدها النظام البريطانيّ في مصر تمهيداً لإيجاد مؤسسة الجيش.

ب. مكاتب الملّة[5]:

التي أنشئت بعد أربع سنوات من إنشاء المدرسة النموذجيّة، وسميت بهذا الاسم تمييزاً لها عن المنشآت العسكرية، وقد انتشرت هذه المكاتب في طول البلاد وعرضها.

وتكمن خطورة المسألة، في أنّ السيطرة الكولونياليّة تتمّ من غير ضجيج، إذ تأخذ شكل «العملية الإرشادية المتصلة»[6] كما يسميها كرومر، وتخضع لتناسب طردي فكلما كانت مناهج النظام الجديد في آليات السيطرة الكولونيالية غير ملحوظة وخفيّة، كانت صورة السلطة السياسيّة المنبثقة عنها حقيقية بالنسبة إلى أفراد مجتمعها بشكل متزايد.

(1) ينظر: ميتشل، استعمار مصر، ص ص 115.117.
(2) المرجع السابق، ص 153.
(3) المرجع السابق، ص 144.
(4) ينظر: المرجع السابق، ص 115.
(5) ينظر: المرجع السابق، ص 117.
(6) المرجع السابق، ص 267.

2. نموذج مدرسة باريس[1]:

تختلف عن النموذج السابق من حيث بلد المنشأ، وتشترك معه في الاستراتيجيّة والجوهر، فقد أنشأتها الحكومة المصريّة في باريس بين عامي 1844-1849، ونظّمتها وأدارتها وزارة الحربيّة الفرنسيّة، وتقوم غايتها على نشر نظام الطاعة المطلقة ذاته في مدرسة لانكستر، أمّا آلياتها فقد عملت على مستوى أعمق وهو إرسال كوادر من مصر من أجل تربيتها وتعليمها، لتعود فتستلم مقاليد السلطة والحكم، وتقترح بلغة التحسين والإرشاد والتمدين مشاريع تكمن بداخلها استراتيجيات النظام الجديد الذي أتاح إحكاماً غير مسبوق على الأجسام والعقول؛ ومن أمثال هؤلاء: إسماعيل باشا الذي استلم مقاليد حكم البلاد، وعلي مبارك أحد نظاره، ومجموعة من الرجال الذين استلموا مهمتهم للتعليم في مصر في ستينيات القرن التاسع عشر.

إنّ تأطير التعليم تبعاً لاستراتيجيات النظام الجديد سهّل أداء مهمة الكولونيالية وفق الغايات المرسومة؛ إذ أصبح النظام الجديد يعمل بشكل تلقائيّ، ويمتلك من القدرة ما يجعله ينتشر في كلّ البلدان العربيّة والإسلاميّة، فإذا ما اطّلعنا على نظام المدارس وبرامجها وآلياتها في العقاب والمراقبة والمكافأة والانضباط والسيطرة، في سوريا مثلاً، وجدناه هو ذاته النظام الداخليّ لمدرسة باريس 1844م.

لقد بدأت صور سيطرة الدول الاستعماريّة اقتصاديًّا على الدول المستعمَرة تنكشف مع حصول هذه الدول على استقلالها الماديّ، وهي صورة تمتدّ جذورها إلى ما قبل هذا الاستقلال، ولذا فإنّ هذه الدراسة آثرت استخدام مصطلح «الخطاب الكولونيالي» وليس «الكولونيالية الجديدة» أو «ما بعد الكولونيالية»، لأنّ الكولونيالية في جوهرها تسعى إلى السيطرة، قبل وبعد وفي أثناء الوجود العسكريّ، وما يدعم موقفنا هذا هو الشكل الانضباطي الذي اتخذه التعليم في مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر، وكان هدفه الأساسي تشييء الفرد وفرض ثقافة النسق الواحد والطاعة المطلقة لإنتاج شكل جديد من السلطة السياسية، وهي سلطة يحتاجها الاقتصاد الأوروبي من خلال إدخال العنصر الأوروبي الإنتاجي إلى مصر[2]، لتصبح مصر سوقاً للمواد الأوليّة من جهة ولتصريف المنتجات من جهة ثانية لتأمين نفقات التوسّع الاستعماري الذي كانت أوروبا تقوم به وتعتمد في رفاهيتها عليه.

الآلية الثانية: تشوّيه النظام والقيم:

بما أنّ القيم مسألة ذهنيّة نظريّة كامنة، فهي بحاجة إلى حامل يجسدها ويجعلها مُفعّلة، ويتمّ ذلك من خلال النماذج التي تمثل هذه القيم، وتترجمها إلى أفعال وسلوكيات في الواقع، ويكون النموذج مقبولاً من قبل أفراد المجتمع بمقدار تجسيده للقيم المستمدة من الهُويّة، وعمله على الارتقاء بهم نحو الأفضل، فهو يشكل معياراً لسلوكهم، إذ تكمن وظيفة النموذج في كونه معياراً لتعميم كل أنواع السلوك الفرديّ والاجتماعيّ، وإلهاماً لتغيير الذوات والرقيّ بالمجتمعات، فهو يقدّم صورة لغاية الكمال الإنسانيّ، كما يساعد النموذج في ضبط العلاقات الإنسانيّة، إذ يعدُّ الحكم والمرجعيّة.

إنّ صناعة النموذج في مرحلة ما ليست عمليّة سهلة بل هي عمليّة اصطفائيّة معقدة ترتبط بوعي الأمة وهويّتها الثقافيّة ورسالتها الحضاريّة.

ويشكّل التعليم إحدى مرايا الهُويّة الأكثر وضوحاً، وتأتي أهميته من أنّه يصوغ بشكل غير مباشر هُويّة الإنسان الثقافيّة، التي تشتمل على القيم الأخلاقيّة والاقتصاديّة والدينيّة والعلميّة والاجتماعيّة.

وقد أولى الخطاب الكولونياليّ صناعة النماذج في المجتمعات المستعمَرة، أهمية كبيرة، وبخاصة النماذج التعليميّة، إذ إنّها اليد الخفيّة التي ستساعده في «تبديل أذواق وعادات الشعب بأكمله، وذلك من خلال الاستيلاء على الفرد وتحويله إلى ذات منكبة على العمل»[3]، وهذا ما ستقوم به السلطة السياسيّة الحديثة التي أقامتها الكولونياليّة في المجتمعات المستعمَرة.

ولا تتمّ عملية التبديل هذه إلا بتشويه ما هو موجود لاستقبال الآتي بشكل طبيعيّ تلقائيّ بل مُرحب به، وبهذه الآلية تمّت صناعة نموذج للمعلّم يتوافق مع الغايات الكولونياليّة، إذ

(1) ينظر: المرجع السابق، ص 117.118.

(2) ينظر: المرجع السابق، ص 122.

(3) المرجع السابق، ص 123.

شُوِّهت صورة المعلّم الذي يعلّم في الجوامع المتمثّل بشيخ الكُتّاب، والقيم التي يحملها والنموذج الذي يمثله، فهو غالباً ما يُصوّر في الإعلام والفن والأدب بصورة رجل أعمى، يستعمل العصا لتأديب الطلاب، ويحابي فيما بينهم، تبعاً للهدايا التي تقدّم له، وبناءً على هذا فقد شُوِّهت قيم النزاهة والصدق والحق التي كان من المفترض أن تتمثّل به، ليتعلّمها الآخرون منه، وفي الوقت نفسه، تمّ الترويج لصورة المعلّم الحضاري، وتمّ ربط التلاميذ بمعلم واحد، يتقاضى أجره من السلطة السياسيّة التي تمارس عليه شتى أنواع المراقبة، ولذلك تراجع دور المساجد التعليميّ وخاصة بعد استيلاء الحكومة على أوقافها، وأصبح المعلّم والمتعلّم ومكان التعليم ومناهج التعليم تابعة للنظام الجديد الذي عملت الكولونياليّة على استقدامه بطريقة غير معلن عنها، لتفتيت الإنسان من الداخل، وزعزعة البنية المعرفيّة التي تمثّل عين وجوده، لتسهل من ثمّ عملية السيطرة عليه من غير مدفع أو دبابة؛ لأنّه يكون قد دُمِّرَ تكتيكيًّا من الداخل، وغدا لا يميز الصديق من العدو، أو الحق من الباطل.

ولكي تتم عملية السيطرة بشكل كامل ومحكم لا بد من النفاذ إلى تشويه نموذج المرأة المسلمة وتغيير القيم التي تحملها، لأنّ المرأة تشكّل بنية أساسية في هويّة الأسرة ومن ثمّ هويّة المجتمع بأكمله، لذلك تمّ استقدام نموذج للمرأة الغربيّة، والترويج لقضايا حرية المرأة والاضطهاد الذي تعاني منه المرأة في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة؛ إذ عمل الخطاب الكولونياليّ، بالاعتماد على وسائل الإعلام والمؤسسات التي أنشأها داخل هذه المجتمعات، والتمويل الذي أغدقه على الأبحاث التي تدرس وضع المرأة وأسباب المعاناة التي تعيق من تطورها، على الوصول إلى هدفه من هذه الاستراتيجية، وهي إدانة الإسلام الذي فرض قيوداً على المرأة المسلمة، ومن ثم ترويج مقولات هذا الخطاب بأنّ المرأة المسلمة لن تنال (حريتها) إلاّ إذا تخلت عن العائق الذي يمنعها من التطوّر، والخطوة الأولى هي نزع الحجاب، ومن ثمّ الاقتداء بالمرأة الغربية التي روّج الإعلام صورة لها بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

ومع استجابة المرأة المسلمة لهذا الخطاب وانسياقها وراءه، يكون آخر حصون المجتمع قد انهار، وحقق الخطاب الكولونيالي أهدافه في إدامة السيطرة وتحقيق تبعية هذه المجتمعات للقوى الكولونيالية التي أنتجت هذا الخطاب.

الخاتمة

لا تقتصر آليات الخطاب الكولونياليّ على الآليتين اللتين تمّت دراستهما؛ إذ ثمّة كثير من الآليات الجديرة بالبحث والدراسة، منها الأنظمة التمدينيّة الجديدة في الصحة، والقضاء، والإعلام، والشركات الاستثماريّة والدعائيّة، والمهرجانات الثقافيّة والجوائز الأدبيّة... إلخ.

وبناءً على ما تقدّم أصبح بالإمكان رؤية كيف ساهمت الأنثروبولوجيا بفرعيها (الأثنوجرافيا، والأثنولوجيا) في ترسيخ مقولات الفكر الاستشراقيّ عن المجتمعات التي كانت تسيطر عليها القوى الإمبرياليّة؟ وكيف انتقلت هذه المقولات إلى داخل هذه المجتمعات وأصبحت تُعرّف نفسها بها؟ فغدت مقولات من مثل «تجذر الكسل في الشخصيّة العربيّة-المصريّة»، و«الميل الفطريّ إلى الجريمة والعنف في الشخصيّة العربيّة-الجزائريّة»، جزءاً من الهويّة العربيّة.

كما كشفت الدراسة عن أثر التأطير في العمليّة التعليميّة وكيف تمّ إنتاج ثقافة الطاعة؟ ومن ثمّ كيف ساهمت هذه الثقافة في تطويع المجتمعات المُراد السيطرة عليها من خلال زراعة مؤسسات تعليميّة على الشاكلة الغربيّة، وتشويه النماذج والقيم؟

وبهذا تمّ تفكيك استراتيجيتين من استراتيجيات الخطاب الكولونياليّ الذي عمل على ترسيخ علاقة التبعيّة التي ما زالت تعاني منها الدول التي كانت مستعمَرة، وبيان كيفية تفعيل الخطاب الكولونيالي لآلياته داخل هذه المجتمعات.

ولعلّ هذه الدراسة تكون بداية لسلسلة من الأبحاث الاجتماعية الثقافية التي تمس جوهر الوجود الإنسانيّ في مجتمعاتنا العربيّة اليوم؛ إذ لا يمكن رفض آليات التطوير ولكن بشرط ألاّ تتعارض مع الثوابت في الهويّة، وألاّ تكون مفروضة ومرعيّة من الخارج، وأن تحافظ على روح العالم العربيّ والإسلاميّ وخصوصيته، ودليل صحة ذلك هو واقع الأمة العربية في المجالات كلّها.

المراجع

إبراهيم، عبد الله. 2003م. السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة. الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

أشكروفت، بيل، وجريفيث، جاريث، وتيفين، هيلين. ترجمة: الروبي، أحمد، وحلمي، أيمن، وعثمان، عاطف. 2010م. دراسات ما بعد الكولونياليّة المفاهيم الرئيسية. الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، مصر.

أوين، روجر. ترجمة: عباس، رؤوف. 2005م. اللورد كرومر الإمبرياليّ والحاكم العسكريّ. الطبعة الأولى، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، مصر.

ديمولان، إدمون. ترجمة: الدجوي، حسن توفيق. 1901م. التربية الجديدة. مطبعة الترقي، القاهرة، مصر.

ديمولان، إدمون. ترجمة: زغلول، أحمد فتحي. 1899م. سرّ تقدم الإنكليز السكسونيين. الطبعة الأولى، المطبعة الرحمانية، القاهرة، مصر.

الرويلي، ميجان، والبازعي، سعد. 2002م. دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً. الطبعة الثالثة، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب.

سعيد، إدوارد. ترجمة: عناني، محمد. 2006م. الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق. بدون رقم الطبعة، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

الصالح، أسمهان. 2007م. منهج البحث والتحقيق. بدون رقم الطبعة، مديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة، جامعة حلب، سوريا.

فانون، فرانتز. ترجمة: الدروبي، سامي، والأتاسي، جمال. 1966م. معذبو الأرض. الطبعة الثانية، دار الطليعة، بيروت، لبنان.

فهيم، حسين. 1986م. قصة الأنثروبولوجيا فصول في تاريخ علم الإنسان. ع (98)، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص ص 14-15.

فوكو، ميشيل. ترجمة: سبيلا، محمد. 1984م. نظام الخطاب. الطبعة الأولى، دار التنوير، بيروت، لبنان.

لوبون، غوستاف. ترجمة: رستم، محمد صادق. د.ت. الحضارة المصرية القديمة. بدون رقم الطبعة، المطبعة المصرية، مصر.

لوبون، غوستاف. ترجمة: زعيتر، عادل. 2012م. حضارة العرب. بدون رقم الطبعة، الهيئة المصرية للكتاب، مصر.

لوبون، غوستاف. ترجمة: زغلول، أحمد فتحي. 1987م. سرّ تطور الأمم. الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، لبنان.

لوبون، غوستاف. ترجمة: زغلول، أحمد فتحي. 2005م. روح الاجتماع. الطبعة الأولى، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، مصر.

لوكمان، زكاري. ترجمة: يونس، شريف. 2007م. تاريخ الاستشراق وسياسته والصراع على تفسير الشرق الأوسط. الطبعة الأولى، دار الشروق، مصر.

لين، إدوارد وليم. نقله إلى العربية: نور، عدلي طاهر. 1950م. المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم في القرن التاسع عشر. الطبعة الأولى، مطبعة الرسالة، مصر.

مجمع اللغة العربية في القاهرة. 1993م. المعجم الوسيط. الطبعة الثالثة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، مصر.

ميتشل، تيموثي. ترجمة: السباعي، بشير، وحسان، أحمد. 1990م. استعمار مصر. الطبعة الأولى، سينا للنشر، مصر.

هولتكرانس، إيكه. ترجمة: الجوهري، محمّد، والشامي، حسن. 1972م. قاموس الأنثروبولوجيا والفلكور. الطبعة الأولى، دار المعارف، مصر.

Dismantling Strategies of the Colonial Discourse towards Colony People A Review Article

Susan Hammod Al-Aleka and Hussein Abdullah Alsseddik

Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities
Aleppo University, Syria

ABSTRACT

This article aims to clarify the origin of colonial discourse and the authority forms founded in colonial communities structure. It also aims to present the reasons for the continuation of subsidiarity relationship between the colonizer and the colony, and the mechanisms that have made this discourse a continuously generated speech. In addition, the article examines the new alternative systems that is developed by the colonist instead of military operations.

This work focuses on the second level, i.e. the disclosure of the colonial influence on the identity of the colonizer, the new tools to control economic, cultural, social, and political structures. The approach used was to study two of the hidden colonial discourse mechanisms; i.e. anthropology and affirming of orientalists', and framing of education and culture. The work concluded that these mechanisms distorted the identity of previously colonized communities and assured the continuation of subsidiarity relationship.

KeyWords: Authority, Colonialism, Orientalism.